

● المكتبة العربية

اولا: الحكمة فى الشعر العربى

مختارات من روائع الشعر العربى ، من العصر
الجاهلى إلى العصر الحديث ، ٣٥٧ صفحة من القطع
المتوسط ، تأليف الأستاذ عبد الستار على السطوحى ،
دار الاعتصام بالقاهرة .

عرض وتقديم : د . الطاهر أحمد مكى

تعد كتب المختارات من أقدم ما ألف فى الأدب العربى ، بدءا بالمفضليات ،
ومرورا بالحماسة ، وانتهاء بالمختارات الحديثة للبارودى والمنفلوطى وغيرهما ، وهى
تأخذ فى كل عصر وعند كل مؤلف اتجاها خاصا ، والكتاب الذى بين أيدينا خطوة
متقدمة على الطريق فى هذا النمط من التأليف .

اختار المؤلف لنفسه فى الكتاب منهجا ذاتيا لم يسلكه أحد قبله ، فهو فيه رائد
غير ناقل ، ومبتدع غير متبع ، جاءت مقدمته من غير عنوان ، فريدة النسيج ، تمثلت
فى خمسة أبيات احتوى كل بيت منها حكمة : أحكم بيت قالته العرب ، فالبيت الذى
نال جائزة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يليه البيت الذى طرب له ، فأبرع بيت قالته
العرب ، وأخيرا أصدق بيت ارتأته .

وإذا تجاوزنا البيتين اللذين أجاز أحدهما الرسول ، وطرب للآخر ، فإن تفضيل
الأبيات الثلاثة الأخرى مسألة نسبية ، تخضع للذوق والعصر والثقافة ، وقد يكون
هناك ، فى نظر الآخرين ، ما يفوقها أو يعدلها على الأقل .

بعد هذه المقدمة التى ليست مقدمة يجئ التمهيد ، وفيه حدّ الباحث الحكمة ،
وفرق بينها وبين المثل ، ولحظ - بحق - أن المثل حظى بعناية كبرى ، تتمثل فى
أمهات الكتب التى عرضت له ، جامعة ومعلقة ومؤرخة ودارسة ، واكتفى الباحث بأن
ضرب المثل بكتاب ذائع جامع ، وهو « مجمع الأمثال » للميدانى ، وهو مؤلف
متأخر نسبيا .

والحق أن التأليف فى هذا الجانب يعود إلى أيام الإسلام الأولى ، وبعض الذين قاموا به من المخضرمين ، وأقدم من نعرف من هؤلاء : عبيد بن شَرِيّة الجرهْمى ، وهو جاهلى ، عمّر طويلا ، وأدرك الإسلام وأسلم ، وتوفى فى نهاية حكم معاوية ، وكان راوية الأعشى ، وله كتاب فى الأمثال ، أفاد منه الميدانى ، وأبو كلاب ورقاء بن الأشقر لسان الحمرة ، وولّد فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام ، وكان خطيبا حكيما ، ومن أفضل النسّابين ، وله كتاب فى الأمثال ، ذكره الجاحظ فى كتاب الحيوان ، وصحار بن العباس (أو عياش) من بنى عبد القيس ، وكان صحابيا من أنصار عثمان بن عفان ، واشترك فى فتح مصر ، وشهد موقعة صفين ، وكان نسّابة ، وألف كتابا فى الأمثال ، ولكن المؤلفين الذين جاؤا بعده لا يذكرونه إلا نادراً .

فإذا مضينا قليلا ، وتجاوزنا المخضرمين ، فسوف نلتقى بالنخار بن أوس العذرى ، الذى ولد فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعاصر جميل بشينة ، وتوفى ٥٦٠ هـ = ٦٨٠ م ، ويراہ ابن الكلبي أعظم علماء العرب فى الأنساب ، وينسب له الجاحظ فى كتابه الحيوان كتابا فى الأمثال . ولعل منهم علاقة بن كُرسَم ، وعاش فى عهد يزيد بن معاوية ، ويروى النديم فى كتابه الفهرست ، على نحو واضح ، أن له كتابا فى الأمثال ، ولكن « ياقوت » فهم من النص أنه راوية عبيد ، فى كتابه الأمثال الذى شرحه البكرى ولم يشر إلى علاقة غير مرة واحدة ، دون أن تفهم منه هل يراه مؤلفا أم راوية ؟ .

مؤلفات الذين سبقوا لم تصلنا ، ولا نعرف شيئا عن منهجهم أو طريقتهم فى التأليف ، وكل ما هنالك أن ذكرهم يرد فى الكتب المتأخرة التى صنف فى الأمثال ، ونقلت عنهم .

تعليل كثرة التأليف فى الأمثال وقدمه يعود فيما أرى إلى شيوع المثل ، وكثرة استخدامه بين كل طبقات المجتمع ، وأن هؤلاء المؤلفين كانوا مجرد نقلة ومدونين ، لأنهم يعرفون القراءة والكتابة ، فلم يكن التأليف يكلفهم شيئا ، غير تدوين ما أحبوا مما يسمعون ، دون أن يهدفوا إلى أية غاية أبعد من هذا ، وواضح أن مؤلفاتهم هذه لم

تكن شائعة على النحو الذى يحفظها ، وأنها نقلت شفاهاً ، ولأنها كانت تنقل تراثاً مشتركاً لا يختص به أحد ، لم يهتم أحد بما كتبوا ، إلا من هدف إلى توثيق أو تأكيد صحة ، وهؤلاء قليل .

ولا نكاد نمضى مع الزمن ، ونبلغ نهاية العصر الأموى ، حتى تنشط حركة التأليف وتتسع ، ويؤلف العلماء فى الأمثال بكثرة ، وأحسب أن أقدم مؤلف فى الأمثال وصلنا فعلاً ، هو كتاب الأمثال الذى ألفه المفضل الضبى ، المتوفى ١٧٠هـ = ٧٨٦ م ، ويضم ١٦٠ مثلاً ، وكان مصدراً لكثير من المجموعات التى تلت .

مع النهضة الإسلامية ، التى بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى ، أخذ التأليف فى الأمثال ضروباً مختلفة ، من الجمع والشرح والتبويب والتفسير . فيؤلف نفطويه (ت ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م) أمثال القرآن الكريم ، ويؤلف أبو الشيخ الأصفهاني ، عبد الله بن محمد جعفر بن حيان (ت ٣٦٩ هـ = ٩٧٩ م) وقد يوقف المؤلف كتابه على الشعر وحده ، أو النثر وحده أو يجعله خليطاً منهما ، وقد يوقفه على شاعر بعينه ، ويقدم لنا حمزة الأصفهاني (ت قبل ٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م) نموذجاً واضحاً فى الأمثال فى هذا العصر) فى كتابه الأمثال على أفعال ... أو الدرة الفاخرة ، فى الأمثال السائرة ، الجارية على ألسنة الفصحاء ، وهو من كتب الأمثال الحافلة ، نقل عنه الميداني ، وزاد عليه الثعالبي فى خاص الخواص .

وربما كان كتابه « الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر ، فى الأمثال والأقوال الماثورة الواردة فى بعض الأشعار » أقرب الكتب إلى الكتاب الذى بين أيدينا ، وإن اختلفا منهجاً ، وربما من المفيد ، وعارن على الموازنة المضيئة ، أن نأتى على هذا المنهج موجزاً :

يبدأ الكتاب بمقدمة فى طريقة الأشعار ، وفى منقولات أبيات عند اليونان وعند الفرس ، وفى غزارة الحكم العربية ، ويحتوى النص الرئيسى على نحو ٤٧٠٠ مثل من الشعر : أنصاف أبيات ، وأبيات صحاح ، وأزواج أبيات ، وهى مرتبة بحسب أوائل كلماتها ، فى سبعة أبواب ، دون ذكر أسماء الشعراء أو المصادر ، وكسره على ستة أبواب :

الباب الأول : أمثال وردت فى نصف بيت وتضمن ١٥ فصلا ، احتوت ١٣٥٠ مثلا .

الباب الثانى : أبيات صحاح ، وجاء فى ١٥ فصلا ، تضمنت ١٧٥٠ مثلا .

الباب الثالث : مثنى قصار الأبيات ، أو فى الأبيات السوائر ، بيتين بيتين ، واشتمل عشرة فصول ، احتوت ٢٧٠ مثلا .

الباب الرابع : فى منقولات أمثال للفرس إلى أبيات شعر عربى ، أو فى أبيات ذات أمثال منقولة من الفارسية إلى العربية ، وفيه أربعة فصول تضمنت ٤٠٠ مثل ، وهنا يذكر ، لأول مرة ، مصدره ويقول إنها منقولة من كليلة ودمنة .

الباب الخامس : فى جمل من الأمثال مختلفة الفنون من المنظوم والمثنو ، وجاء فى ثلاثة فصول . احتوت ما يربو على مئتين مثل فى المنظوم ، وسائرهما من المثنو ، وهى هنا من أمثال بُزْرجمهر وحكم أردشير .

الباب السادس : باب فى جمل من المقطعات تحوى سوائر أبيات ، فيها مضمنات قد جرت فى التضمين مجرى الأمثال ، وجاءت بقايا دون تقسيم إلى فصول أو ذكر عددها .

ويختم الكتاب فصل « فى التشبيهات الشعرية » فى ستين فقرة صغيرة ، تخلص من الأمثلة الشعرية ، وتدرج موضوعيا من السماء والأرض والعناصر إلى النبات والحيوان والإنسان ، متضمنة تشبيهات تتعلق بجمال المرأة فى الغزل والحرب والسلاح وأمور شتى .

وجاء بعد هؤلاء جميعا الميدانى ، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) فأفاد من كل سابقه فى كتابه الجامع « مجمع الأمثال » ، واستقى مادته فيما يقول هو عن نفسه من خمسين كتابا ، ولقى الكتاب رواجاً واسعاً ، وتعرض للاختصار والشرح ، ونظم شعرا .

وبداهة لم يتوقف التأليف فى الأمثال بعده ، وكل مؤلف يفيد من سابقه ، ويأخذ فى اعتباره متطلبات عصره ، وذوق الناس حوله ، فتعددت المناهج ، وتنوعت الأساليب .

إلى أن نصل إلى الكتاب الذى بين أيدينا ، وهو وإن حمل عنوان الحكمة لا يبعد عن المؤلفات التى سبقته فى الأمثال إلا بمقدار ما يختلف الأمر بين روح وروح ، وذوق وذوق ، وفيه حاول المؤلف أن يفرق بين المثل والحكمة ، ولحظ بحق أن التأليف فى الأول كثير ، وفى الآخر شحيح ، ورأهما شيئا مختلفا ، والأمر فيما أحسب يحتاج إلى فضل بيان .

يبدو لى أن بين المثل والحكمة عمومًا وخصوصًا من وجه ، فيما يقول المنطقة ، فكل مثل حكمة ، وليست كل حكمة مثلاً ، لأن المثل هو القول السائر ، قيل فى حادث معين ، أو فى قصة خاصة ، وصار يطلق على أية حال تشبه ذلك الحادث الذى قيل فيه ، والغرابة فى القصة ، فيما يرى الزمخشري ، شرط لاشتغال القول وتسميته مثلاً . ومهما يكن فإن الكلام الذى يصير مثلاً فى نهايته ، وكان حكمة فى بدايته ، شرطه إيجاز اللفظ ، وصدق المعنى ، وإنسانية المتجربة ، وهذا ما يجعله يسير بين الناس ، ويقوم مقام المثل الذى يعمل عليه غيره .

وكان إبراهيم النظام (ت ٢٢١ هـ = ٨٤٥ م) يقول : أربعة تجتمع فى المثل ولا تجتمع فى غيره من الكلام :

إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .

وفى ذلك أسير على خطى أبى هلال العسكري ، فهو يشترط فى المثل الذبوع والانتشار ، ويرى أن كل حكمة سائرة تسمى مثلاً ، وقد يأتى القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به ، إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً . ومن هذا الضرب فيما أرى ، أن المؤلف جاء فى آخر كتابه بفصل أعطاه عنواناً : « حكم تجري مجرى الأمثال » .

ولكن .. متى تسير الحكمة فتصبح مثلاً ، أو تبقى فى مكانها تتحرك بين طبقة خاصة فتظل حكمة ؟ فى رأى أن ذلك يتوقف على شعبية التصوير أو خصوصيته ، فهناك من ألوان التعبير ما هو فوق مستوى العامة ، وما تعبى كل الأفهام ، والأول تصبح معه الحكمة مثلاً ، والثانى لا تفارق مع صفتها ، ويتجلى ذلك فيما جاء من الأمثلة نثراً ، وارتبط بقصص معين ، فذلك مما تهواه العامة وتغرم به ، ومعه تصبح الحكمة مثلاً ، ويتجلى ذلك واضحاً فى كل ما كتب عن الأمثال من مؤلفات ، أما ما يتصل بالشعر الفصيح ، والقوى منه ، فيظل الأمر محصوراً بين طبقة بعينها ، فلا تتجاوز الحكمة فيه المستوى الاجتماعى والثقافى الذى يفهمها ، وإن أصبحت مثلاً فبين هذه الطبقة نفسها .

ومن هذا كتاب الأستاذ عبد الستار السطوحى : « الحكمة فى الشعر العربى » ، لأن الشعر ثقافة عالية ، لا يستوعبه معنى وتعبيراً إلا الخاصة من الناس ، وتظل الحكمة فيه وقفاً على هذه الصفوة ، فلا يرقى إلا القليل منها إلى مرتبة المثل ، وبخاصة فى عصرنا ، فقد ضاقت دائرة هؤلاء المثقفين ، ويمكن القول ، دون مبالغة ، إن ثلاثة أرباع من يدعون الشعر ، ومثلهم بمن يمارس النقد ، لا يحسن قراءة بيت من شعر التراث قراءة صحيحة ، ولا فهم معناه ، وأبعد من هذا أن يستوعب حكمه وأن يتمثل بها .

جاء كتاب « الحكمة فى الشعر العربى » فى عشرة أبواب ، سبقها تمهيد أوجز فيه المؤلف طبيعة الحكمة فى عصور الأدب العربى المعروفة : الجاهلى والأموى والعباسى والأندلسى ، وما عُرف بعصور الضعف ممثلة فى العصرين المملوكى والتركى ، والعصر الحديث . واقتصر فيه الشعر دون النثر ، « لما للشعر من جرس وموسيقا تجعله أكثر استجابة للحفظ ، وأسرع مخامرة للنفس ، وأقوى لصوقاً بالقلب والوجدان » . وسبب آخر هو أن « الحكمة فى أدبنا العربى الزاخر المتلاطم لم تنزل بعد مبعثرة منشورة

فى كتب الأدب ودواوين الشعراء ، لا يؤلف بينها نظام ، ولا يضم شتاتها كتاب ، على مالها من عظيم نفع ، وجليل أثر ، فى عوالم النفس والعقل والوجدان .
أتفق مع المؤلف فى الثانية ، ومن هنا تحجى أهمية كتابه فقد سد نقصا ، وملا فراغا ، وأتى بجديد ، ولكنى أختلف معه فى الأولى ، لأن الحكمة النثرية قد تحجى فى جملة واحدة ، ذات إيقاع موسيقى ، فتكون كالشعر سهولة فى الحفظ ، ولصوقا بالذاكرة .

جاء تقسيم الأبواب العشرة وفقا لمضمونها :

الأخلاق والعلاقات الإنسانية ، والنفس والعقل ، وفلسفة القوة ومقومات الحياة ، وفى أطوار العمر ، والشكوى من الزمان ، وحكم فى أغراض شتى ، وحكم تجرى مجرى الأمثال .

وكسر كل باب من هذه الأبواب على عدة فصول ، تختلف عددا وتتفاوت طولا ، فقد جاء الثانى منها فى تسعة فصول ، وجاء كل من التاسع والعاشر فى فصل واحد ، وبين هذين الحدين تتفاوت بقية فصول الأبواب عددا .

يقدم المؤلف لكل فصل بلمحة موجزة يوضح فيها معناه ، ثم يورد الأبيات التى تحمل حكمة تتصل بهذا المعنى ، دون أن تخضع فى إيرادها لغير ذوق المؤلف ، وربما لذاكرته وإن راعى العصور الأدبية ترتيبا ، دون التزام تاريخى بين شعراء العصر الواحد . وتحجى الحكمة فى بيت أو اثنين ، وقد تتوزع المعنى أبيات ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة ، وخالف مع إيليا أبى ماضى فجاءت حكمه فى ثمانية أبيات متتالية ، ومثلها لأمير الشعراء أحمد شوقى مرة ، وبلغت أبياته مرة تسعة ، وبلغت مع ابن سعيد الأندلسى فى ، وصيته لابنه على ، وهو يودعه فى رحلته للمشرف اثنى عشر بيتا .

وهو ينسب البيت إلى قائله ، ويعرف بالشاعر فى إيجاز شديد ، موضحا خصائصه فى إلحاح شافية ، وقد يورد اسمه فحسب متكنا على ماله من شهرة تغنى

عن التعريف ، وقد يقنع بوصفه فى كلمة أو اثنتين ، مستمداً ذلك من طبيعة الأبيات التى يروىها له . ولكنه أحيانا ، وبخاصة عندما يوازن ، يكتفى بأن يذكر : « يقول الشاعر العربى » دون أن يحدّد لنا من هو . وقد يسبق البيت ، أو الأبيات ، ما يلقى عليها ضوءاً ، من حدث أو قصة ارتبطت بها ، فى إشارة ملمحة .

الشعر مضبوط بدقة ، فيما هو ضرورى ، وهى محمّدة تحسب للمؤلف ، فالشكل جزء من بنية الكلمة فى الحقيقة ، والتخفف منه فى الشعر جريمة ، على الأقل فيما هو ضرورى ، وهو يفسر الكلمات الغامضة فى الهامش ، مما يصعب على القارئ العادى ، تفسيراً موجزاً ومرضياً . وشرح الأبيات فى النص بسيط موجز ، يفتح مغاليق الأبيات ولكنه لا يحل مكانها ، وقد يلمح إلى جانب جمالى سريعاً ، وهو فى ذلك كله لا يسير على منهج محدد ، يشرح إذا رأى الوصول إلى المعنى يتطلب ذلك ، ويمرّ به عجباً إذا رآه واضحاً ، فالتفسير إطالة . وأحيانا يسقط الماضى على الحاضر ، ويوازن بين ما كان وما نحن فيه ، وهذه قيمة الشعر الخالد ، معانيه لا تنفد ، والعبرة به لا تنقضى بمضى الزمان .

ويبقى ما أراه دائماً ، وهو أن الشعر إبداع ذاتى ، ولو تعدى به صاحبه ذاته فرداً ، وعبرَ به عن هموم الجماعة التى ينتسب إليها ، ومن ثم يختلف وقعه على قارئه أو سامعه تبعاً لمزاجه النفسى ، رضى أو سخطاً ، تفاؤلاً أو تشاؤماً ، ولهذا يتفاوت أيضاً رضى الناس عن الشعر والشاعر بحسب حالة المتلقى نفسه ، وأثق أن هذه المجموعة من خلاصة الشعر ، فى تنوعها وانتقائها ، سوف يجد كل طالب فيها بغيته ، وكل باحث عن المتعة الفكرية والجمالية غايته ، وفى الوقت نفسه تردنا إلى تراث توقف التأليف فيه ، وتلحقنا بالعالم المتقدم حولنا ، وفيه لا يتوقف التأليف فى المختارات ، تغطى كل أنواع الأدب ، وكل عصوره ، وتنال بين مفكره مكانة ملحوظة .

إن « الحكمة فى الشعر العربى » كتاب خليك بأن يُقتنى ويُقرأ ، وأن يشير من الجدل والنقاش ، بمثل ما يقدم من المتعة والفن ، والجهد الذى قدم فيه ، جمعاً وتوضيحاً ، وتفسيراً وشرحاً ، وإخراجاً أنيقاً ، جدير بكل تقدير وتكريم .

ثانيًا : إصدارات متنوعة :

١ - صدر للأستاذ الدكتور / أحمد عبد العظيم الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم بقسم النحو والصرف والعروض

كتاب بعنوان « معايير الرفض والقبول فى الدرس النحوى عند عباس حسن » .
دراسة تحليلية نقدية فى النظر والتطبيق والكتاب رحلة نحوية مفيدة وجيدة فى كتاب العالم الجليل عباس حسن الذى ما يزال لكتابه أثر كبير فى الدرس النحوى .
٢ - صدر للأستاذ الدكتور / أحمد عفيفى الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

(١) ظاهرة التخفيف فى النحو العربى عن الدار المصرية اللبنانية .

(٢) المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل بن أحمد .

دراسة وتحقيق للدكتور أحمد عفيفى .

صدر عن دار الكتب المصرية .

٣ - صدر للأستاذ الدكتور / السيد أحمد على الأستاذ المساعد بقسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم الإصدارات التالية .

- الأفعال فى كتاب سيبويه « دراسة نحوية » .

الكتاب يعالج ما جاء فى الكتاب من أمثال العرب ، ثم دراسة تحليلية للأفعال من حيث مناسبتها ومضربها والقضايا النحوية التى يعالجها ورأى النحويين فيها . مع ذكر رأى الباحث فيها وأهم النتائج التى توصل إليها .

٤ - صدر للدكتور مصطفى عراقى مدرس النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة الإصدارات التالية :

١ - ديوان النيازك - شعر - دار الثقافة العربية .

٢ - نظرات فى النحو والمعنى - دار الثقافة العربية .

٣ - الرحلة إلى بلاد الأشواق . عرض وتحليل للقصيدة الميمية لابن القيم .

مكتبة ابن تيمية .

٥ - شرح رسالة الرمانى فى إعجاز القرآن .

لعالم مجهول كأنه الإمام عبد القاهر الجرجانى
كشف عنه وعلق عليه د. زكريا سعيد على - قسم البلاغة والنقد الأدبى .
الناشر : دار الفكر العربى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

وهذا الشرح هو الشرح الوحيد المعروف لرسالة الرمانى فى إعجاز القرآن ، وهو
يطرح كثيرا من القضايا لعلها تغير كثيرا من الثوابت فى تاريخ البلاغة وإعجاز القرآن .
وهو يفسر مواضع مشكلة من هذه الرسالة حار فيها العلماء ، وفيه من التحليل الفنى
لبعض آى القرآن ما لا يوجد فى كتاب .

٦ - شرح عروض ابن الحاجب .

لابن أم قاسم المرادى .

الكتاب دراسة لفكر المرادى فى علم العروض والقافية وهو شرح لمنظومة ابن
الحاجب فى علم العروض ، وهو يضم بين دفتيه رأى ابن الحاجب فى بحور الشعر
وقوافيه ، وكذا رأى ابن أم قاسم المرادى .

٧ - من قضايا النحو فى عبث الوليد دراسة تحليلية .

الكتاب يعالج أهم القضايا التى اشتمل عليها كتاب : عبث الوليد ، ذاكرا
موقف أبى العلاء المعرى من أبيات البحترى سواء كان بالموافقة أم بالمخالفة ، مع
تحليل تلك القضايا وترتيبها بما يتفق وألفية ابن مالك ، ومناقشة جميع هذه القضايا
على ضوء الآراء النحوية واستخلاص أهم النتائج التى توصل إليها الباحث .